حياة أعظم الرسل

مُحَمَّد في طفولتِهِ الأولى

مُحَمَّد فى طفولتهِ الأولى

سَأَقُصُّ عَلَيكَ يَابُنَيَّ قِصَّةَ الرَّسُولِ مُحمدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ طِفلٌ . إِنَّ مُحمدًا كَانَ مِن أَشرَفِ أُسرَةٍ (عَائِلَةٍ) بمَكَّةَ المُكَرَّمَةِ . فَأَبُوهُ عَبدُ اللهِ بنُ عَبدِ الْمُطَّلِبِ . كَانَ أَحسَنَ شُبَّانِ مَكَّةَ خُلُقًا وَأَدَباً . وَلِهٰذَا أَحَبَّهُ كُلُّ مَن رَآهُ . وَأُمُّهُ آمِنَةُ بنتُ وَهبٍ الْفَتَاةُ الصَّالِحَةُ كَانَتْ مِن أَشرَفِ بُيُوتِ قُرَيشٍ . وَكَانَ آبَاؤُهُ

وَأَجدَادُهُ سَادَةَ العَرَبِ وَأَشرافهم . فَبَيتُ الرَّسُولِ بَيتٌ كَرِيمٌ ، عَظِيمُ الشَّرَفِ . فَلاَ تَعْجَبْ إِذَا اختَارَ اللهُ تَعَالَى مِنهُ رَسُولَهُ المُنتَظَرَ . تَزَوَّجَ عَبدُ اللهِ آمِنَةَ بِمَكَّةَ ، وَعُمرُهُ ثَمَانِىَ عَشْرَةَ سَنَةً . وَمَكَثَ فِى بَيتِ أَهلِهَا ثَلاثَةَ أَيَّامٍ كَعَادَةِ العَرَبِ ، ثُمَّ انتَقَلَ الزَّوجَانِ إِلَى بَيتِهِمَا ، وَعَاشَا عِيشَةً سَعِيدَةً ، وَلٰكِنَّ المُدَّةَ الَّتِى مَكَثَاهَا مَعًا كَانَتْ قَصِيرَةً جِدًّا . حَمَلَتهُ أُمُّهُ آمِنَةُ ، ثُمَّ ذَهَبَ أَبُوهُ عَبدُ اللهِ فِى رِحْلَةٍ إِلَى الشَّامِ

لِلتِّجَارَةِ . وَفِى أَثنَاءِ رُجُوعِهِ مِن رِحلَتِهِ وَقَفَ لِيَستَرِيحَ فِى الْمَدِينَـةِ الْمُنَوَّرَةِ ، فَمَرِضَ ، ثُمَّ مَاتَ ، وَدُفِنَ بِالْمَدِينَـةِ . وَكَانَتْ وَفَاتُهُ (مَوتُـهُ) بَعـدَ الْحَمْـلِ بِشَهَرَينِ . فَصَارَ ابنُهُ يَتِيمًا قَبلَ أَن يُولَدَ .

سَمِعَ عَبدُ الْمُطَّلِبِ بِمَوتِ ابنِهِ عَبدِ اللهِ فِـى الْمَدِينَـةِ ، فَحَـزِنَ وَحَـزِنَتْ (زَوْجَتُهُ) آمِنَةُ حُزنًا شَدِيدًا لِمَوتِهِ . .

حَاوَلَ عَبدُ الْمُطَّلِبِ أَن يُدْخِلَ الصَّبرَ فِى قَلبِ آمِنَةَ ، وَيُخَفِّفَ أَحزَانَهَا ، وَقَالَ

لَهَا : يَا ابْنَتِى إِنَّ اللّٰهَ رَحِيمٌ ، وَأَسألُهُ أَن يُعَوِّضَنَا خيرًا ، وَيُعطِيَنَا هَدِيَّةً ثَمِينَةً تَحُلُّ مَحَلَّ أَبِيهِ . فَأَجَابَ اللّٰهُ دُعَاءَهُ ، وَرَزَقَ هٰذِهِ الأُسرَةَ طِفلاً كَانَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِ كُلِّهِ .

وَبعدَ تِسعَةِ أَشهُرٍ مِن حَمْلِهِ وَلَدَتهُ أُمُّهُ بِمَكَّةَ فِى فَجْرِ يَوم الِاثنَينِ ٢٠ مِن إبرِيلَ سَنَةَ ٥٧١ مِن المِيلادِ ، فِى بَيتِ عَمِّهِ أَبِى طَالِبٍ . وَامتَلأَ البيتُ نُورًا . وَحِينَمَا وُلِدَ أَرسَلَتْ أُمُّهُ آمِنَةُ لِجَدِّهِ عَبدِ المُطَّلِبِ

تُخبِرُهُ الخَبَرَ السَّارَّ ، فَجَاءَ وَهُوَ مَسرُورٌ . وَقَامَ بِمَا يَجِبُ عَلَيهِ نَحوَ أُمِّ الطِّفلِ . وَفِى اليَومِ السَّابِعِ مِن وِلاَدَتِهِ أَلْهَمَهُ اللهُ أَن يُسَمِّيَهُ مُحَمَّدًا . وَدَعَا رِجَالاً مِن قُرَيشٍ فَحَضَرُوا ، وَتَنَاوَلُوا الطَّعَامَ فَرَحًا بِالمَولُودِ الْجَدِيدِ . وَسَأَلوا جَدَّهُ : مَاذَا سَمَّيتَهُ ؟ فَقَالَ : سَمَّيتُهُ مُحَمَّدًا ؛ لِأَنِّى أَرَدْتُ أَن يَكونَ مَحمودًا فِى السَّمَاءِ عِندَ اللهِ ، وَفِى الأَرضِ عِند خَلْقِهِ . لَقَد وُلِدَ مُحمدٌ يَتيمًا ، وَلَم يَرَ

أَبَاهُ ، وَلٰكِنَّ عِنَايَةَ اللهِ لَازَمَتْهُ ، وَلَم تُفَارِقْهُ .

وَمِنَ الصَّعبِ يَابُنَيَّ أَنْ أَصِفَ لَكَ مِقدَارَ مَا أَحَسَّ بِهِ عَبدُ المُطَّلِبِ مِنَ السَّعَادَةِ بِابْنِ ابنِهِ . لَقَد طَلَبَ مِن أُمِّهِ آمِنَةَ أَن تَسمَحَ لَهُ بِأَنْ يَحمِلَهُ . فَأَعْطَتْهُ مُحَمَّدًا ، فَحَمَلَهُ بِكُلِّ عِنَايَةٍ ، ثُمَّ نَظَرَ إِلَيهِ وَقَالَ لَهَا : أُهَنِّئُكِ يَا ابْنَتِى بِطِفلِكِ العَظِيمِ . لَقَد حَزِنَّا كُلَّ الحُزنِ حِينَمَا مَاتَ أَبُوهُ عَبدُ اللهِ ، وَلٰكِنَّ اللهَ عَوَّضَنَا

خَيرًا عَظِيمًا بِوِلاَدَةِ مُحمَّـدٍ . اُنظُـرِى يَا ابْنَتِى إِلَيهِ ! إِنَّهُ مِثلُ أَبيهِ تَمَامًـا فِـى صُورَتِهِ . لَو كَانَ أَبُوهُ عَبدُ اللهِ حَيًّا لَكُنَّا الآنَ فِى غَايَةِ السَّعَادَةِ . اُنظُـرِى إِلَـى عَينَيهِ ، إِنَّهُمَا كَعَيْنَىْ أَبيهِ . اُنظُرِى إِلَى وَجهِهِ ، إِنَّهُ كَوَجهِ أَبيهِ . هَل يُمكِنُ أَن يُولَدَ طِفلٌ أَجمَلَ مِن هٰذَا ؟

نَظَرَتْ آمِنَةُ إِلَى وَجهِ عَبْدِ المطَّلِبِ فَوَجَدَتهُ سَعِيدًا ، فَابتَسَمَتْ وَقَالَتْ لَهُ : أَسأَلُ اللهَ أَن يُطِيلَ حَيَاتَكَ حَتَّى تَفرَحَ

بِهِ . وَمُنذُ ذٰلِكَ اليَومِ اِعتَادَ عَبدُ المطَّلِبِ أَنْ يَزُورَ مُحَمَّدًا وَأُمَّهُ آمِنَةَ مَرَّتَينِ كُلَّ يَومٍ صَبَاحًا وَبعدَ الظُّهرِ .

مَن تُرضِعُ اليَتِمَ ؟

اِعتَادَتِ الأُسَرُ (العَائِلاَتُ) الكَبِيرَةُ فِى مَكَّةَ أَن تُرْسِلَ أَطفَالَهَا الصِّغَارَ إِلَى الصَّحَرَاءِ لِرَضَاعِهَا وَتَربِيَتِهَا وَفِطَامِهَا ؛ لِيَعِيشُوا فِى الْهَوَاءِ الطَّلْقِ ، وَالجَوِّ الصِّحِّى ؛ لِيَكُونُوا أَقوِيَاءَ الأَجْسَامِ ، وَيَتَعَلَّمُوا اللُّغَةَ العَرَبِيَّةَ الفَصِيحَةَ . وَقَدِ

اعتَادَتِ المُرضِعَاتُ البَدَوِيَّاتُ الذَّهَابَ إِلَى المُدُنِ لِزِيَارَةِ الأُسَرِ الَّتِى تَرغَبُ فى إِرضَاعِ أَطفالِهَا المَوْلُودِينَ حَدِيثًا ؛ لِلاِستِعَانَةِ بِالرَّضَاعَةِ عَلَى مَعِيشَتِهِنَّ .

وَلَم تَتَقَدَّمْ مُرضِعَاتٌ لِبَيتِ آمِنَةَ ؛ لِعِلْمِهِنَّ أَنَّ مُحَمَّدًا يَتِيمٌ ، وَلَيسَ هُنَاكَ أَبٌ يُكرِمُهُنَّ وَيُقَدِّمُ لَهُنَّ الكَثِيرَ مِنَ الْمَالِ لِلرَّضَاعَةِ وَالتَّربِيَةِ . فَمَنِ الَّتِى تَرضَى بِأَنْ تُرضِعَ مُحَمَّدًا الطِّفلَ اليَتِيمَ ؟

حَضَرَتِ المُرضِعَةُ حَلِيمَةُ السَّعدِيَّةُ

إِلَى مَكَّةَ ؛ لِتَبحَثَ عَن طِفلٍ مِن أُسرَةٍ غَنِيَّةٍ لِتُرضِعَهُ ، فَلَم تَجِدْ . وَقَد عُرِفَت بِأَنَّها نَبيلَةُ الخُلُقِ ، طَيِّبَةُ القَلبِ .

وَجَدَتْ كُلُّ مُرضِعَةٍ طِفلاً تُرْضِعُهُ إِلاَّ حَلِيمَةَ ، فَإِنَّهَا لَم تَجِدْ أَحَدًا . فَكَانَتِ المُرضِعَاتُ مَسرُورَاتٍ مَاعَدَا حَلِيمَةَ . وَبَدَأْنَ الاستِعدَادَ لِلرُّجُوعِ إِلَى بُيُوتِهِنَّ . وَتَضَايَقَت حَلِيمَةُ ؛ لِأَنَّهَا لَمْ تَجِدْ طِفلاً غَنِيًّا تُرضِعُهُ .

وَقَد حَدَثَ أَنَّ جَدَّ مُحمَّدٍ كَانَ مَارًّا

بِالطَّرِيـقِ ، فَـرَأَى الحُـزْنَ عَلَـى وَجْـهِ حَلِيمَةَ ، وَوَجَدَ كُلَّ مُرضِعَةٍ تَحمِلُ طِفلاً رَضِيعًا بَينَ ذِرَاعَيهَا إلاَّ حَلِيمَةَ ، فَقَـالَ لَهَا : تَعَالَىْ مَعِى . فَفَهِمَت حلِيمَـةُ أَنَّ عَبدَ المُطَّلِبِ يُرِيدُ أَن يُعطِيَهَا مُحَمَّـدًا لإِرْضَاعِهِ . وَرَأَتْ أَنَّ رُجُوعَهَا إِلَى بَيتِهَا وَمَعَهَا طِفلٌ يَتِيمٌ أَفضَلُ مِن أَنْ تَرجِـعَ وَلَيس مَعَهَا أَىُّ طِفلٍ .

وَقَد لَحَظَ عَبدُ المُطَّلِبِ تَرَدُّدَهَا فِى أَخْذِهِ لِتُرضِعَهُ ، فَقَـالَ لَهَـا : حَقًّـا إِنَّ

مُحمدًا يَتيمٌ ، وَلٰكِنَّهُ عَزيزٌ ، وَإِنِّى أُحِبُّهُ أَكثَرَ مِن مَحَبَّةِ الْأَبِ لِابنِه . وَلَاتُفَكِّرِى فِى فَقرِهِ ؛ فَإِنِّى سَأُكَافِئُكِ كَمَا يُكَافِئُ الأَغنِيَاءُ مُرضِعَاتِهِم . فَاعتَنِى بِهِ ، وَرَبِّيهِ كَمَا تُرَبِّى الأُمُّ ابنَهَا .

أَخَذَ عَبدُ المُطَّلِبِ حَلِيمَةَ ، وَذَهَبَا مَعًا إِلَى بَيتِ آمِنَةَ ، وَعَرَّفَ آمِنَةَ بِحَلِيمَةَ ، وَقَالَ لِآمِنَةَ : إِنَّ حَلِيمَةَ قَد وَافَقَتْ عَلَى أَن تَأخُذَ مَعَهَا مُحَمدًا ؛ لِتُرضِعَهُ وَتُرَبِّيَهُ .

وَطَلَبَا مِن حَلِيمَةَ أَن تَحمِل الطِّفْـلَ الرَّضِيعَ ؛ لِيَرَيَا : هَل يَرضَى بِالذَّهَابِ مَعَ هٰذِهِ المُرضِعَةِ الغَرِيبَةِ ؟ فَحَمَلَتِ الطِّفلَ العَزِيزَ ، فَابتسَمَ ابتِسَامَةً تَدُلُّ عَلَى أَنَّـهُ رَاضٍ بِالذَّهَابِ مَعَهَا . وَقَـد لَحَـظَت حَلِيمَةُ أَنَّ الأُمَّ تَنظُرُ إِلَى ابنِهَا الوَحِيـدِ نَظْرَةً كُلُّها حُزْنٌ لِفِرَاقِهِ . فَقَالَتْ حَلِيمَةُ لِأُمِّهِ : أَرجُو يَا سَيِّدَتِي أَن تَكونِي مُطمَئِنَّةً مِن جِهَةِ ابنِكِ . وَتَأَكَّدِي أَنِّي سَأَعتَنِي بِهِ أَكثَرَ مِن عِنَايَتِي بِأَوْلَادِي .

سَأَلَت حَلِيمَةُ أُمَّهُ : مَا الْمُدَّةُ الَّتِى تُرِيدِينَ أَن يَمْكُثَهَا مَعِى ؟ فَأَجَابَ جَدُّهُ : أَبقِيهِ مَعَكِ حَتَّى يَكبَرَ جِسمُهُ ، وَيَستَطِيعَ أَن يَمشِيَ وَحدَهُ . وَأَرجُو أَن تَزُورِينَا مِن وَقتٍ لِآخَرَ ؛ لِتَرَاهُ أُمُّهُ ، وَتَطْمَئِنَّ عَلَيهِ ، حَتَّى تَهدَأَ نَفسُهَا مِن جِهَتِهِ .

كَانَت حَلِيمَةُ فَقِيرَةً ، وَلَبَنُها قَلِيلاً لِقِلَّةِ غِذَائِهَا . فَلَمَّا بَدَأَتْ تُرضِعُ الطِّفْلَ اليَتِيمَ ، وَجَدَتْ لَبَنَهَا كَثِيرًا عَلَى غَيرِ العَادَةِ ، فَعَجِبَتْ وَقَالَتْ : لَقَد أَرْضَعْتُ

أَطفَالاً كَثِيرِينَ قبلَ هٰذَا ، وكَانَ لَبَنِـى قَلِيلاً دَائِمًا . وَأَعتَقِدُ حَقًّا أَنَّ هٰذَا الطِّفلَ كَثِيرُ البَرَكَةِ . وَسَيُكرِمُنِى اللّٰهُ بِسَبَبِهِ .

استَأذَنَتْ حَليمَةُ ، وَأَخذَتْ مُحمَّدًا عَلَى يَدَيْهَا ، وَقَبَّلتْهُ أُمُّهُ وَجَدُّهُ . وَوَدَّعا مُرْضِعَتَهُ وَمُرَبِّيَتَهُ .

لَقد كَانَت حَليمَةُ سَعِيدَةَ الحَظِّ ؛ بَل أَسعَدَ امْرَأَةٍ فِى الوُجُودِ ؛ ذٰلِكَ لِأَنَّهَا فِى الـوَقتِ الَّـذِى فكَّـرَتْ فِيـهِ أَن تَرجِـعَ وَلاَطِفلَ مَعَهَا ــ قَد رَجَعَتْ وَهِىَ تَحمِلُ

بَينَ ذِرَاعَيْها أَعْظَمَ طِفلٍ خُلِقَ فِى الْعَالَمِ كُلِّهِ . فَهُوَ الطِّفلُ الَّذِى اختَارَهُ اللهُ لِيُغَيِّرَ صَفَحَاتِ التَّارِيخِ ، وَيُصلِحَ العَالَـمَ ، وَيَنشُرَ الدِّينَ الحَقَّ عَلَى وَجْهِ الْأَرضِ ، وَيكونَ آخِرَ الأَنبِيَاءِ وَالرُّسُلِ .